تصدير

عندما رأيت صور التعذيب في "أبي غريب"، عجزت مثل كثيرين غيري عن التخلص من مزيج الفزع والانبهار الشديد، الذي جذبني إلى تلك الصور. ففيها بنات كاللائي رأيتهن ينشأن في مناطق إيداهو ومونتانا الريفية. وربما نشأت تلك الفتيات مثلي وسط الغابات، يأكلن من صيد آبائهن، ويتعلمن الطهي من أمهاتهن. وبعضهن كما قيل عنهن: كن يحلمن مثلي أن يكن مدرسات عندما يكبرن، (أذكر أني رفضت منحة دراسية من ROTC، كانت تتيح لي حضور إحدى كليات اتحاد آيفي، وفضلت عليها المدرسة اليسوعية المحلية، جزئيًّا لأنني لم أستطع أن أقبل فكرة الحرب... أو أن أرتدي ذلك الزي الموحد القبيح)، ولكن هؤلاء الفتيات مختلفات، فقد التحق أغلبهن بالجيش أملاً في تحقيق أحلامهن، فهل كنت مع هؤلاء الفتيات من مناطق بنسلفانيا ووست فيرجينيا الريفية؟ أم أنني رأيت في حياتهن الطريق الذي تركته... وذلك بفضل رعاية الله؟ لم أكن أتخيل أن أفعل ما فعلن، ولكن هل كن يتخيلن ما فعلنه عندما التحقن بالجيش؟

إني أفكر أيضًا في طالباتي بجامعة وست فيرجينيا، (حيث كان أول عمل تدريسي بدوام كامل لي)، فكثير منهن كن أول جيل في عائلاتهن يلتحقن بالجامعة؛ لأنهن بنات عمال مناجم يحلمن بحياة أفضل، كُنَّ بنات يطلبن معرفة العلاقة بين الفلسفة ومرض الرئة السوداء الذي أصاب آباءهن. أخذت أسأل نفسي: من هؤلاء الفتيات في "أبي غريب"، الفتيات القادرات على هذا اللون من العنف؟ لكن لم يكن العنف ما يطارد أفكاري، بل كان المرح الذي على وجوههن، فقد كُنَّ سعيدات جدًّا، كنّ في حالة مرح حتى بدَوْن شديدات

البراءة. فلماذا كان هؤلاء الفتيات يستمتعن بإيذاء غيرهن؟ وكيف يجدن لذة في العنف؟ بدأت أفكر في مساهمتنا في الاستثمار في العنف، وفي اللذة التي نستمدها من مشاهدته، لا سيما في الأفلام. وكلما تعمقت في الموضوع زاد إدراكي أننا كثقافة لا يقتصر تلذذنا بالعنف على جانبه الخيالي في الأفلام، بل إننا نستمتع بالعنف الحقيقي. إننا مهووسون بالعنف الحقيقي، بتليفزيون الحياة، الذي يكشف لنا بالتفاصيل المثيرة إلى حد الدموية، العنف الجسدي والعاطفي الذي يمارسه الناس بعضهم على بعض، وقد اكتشف مؤخرًا أن بعض الناس يعمدون إلى التفتيش في شبكة الإنترنت عن صور الهجمات على الجنود الأمريكيين في العراق؛ لأنهم «يحبون مشاهدة انفجار الأشياء» (Wyatt 2006). واكتشفت أن صور "أبي غريب" تحولت إلى أيقونات لبعض مواقع الإنترنت الإباحية. فكيف تحولت المشاهد العنيفة إلى ترويح بريء؟

كيف استطاعت البنات في "أبي غريب" هتك عرض الرجال؟ هذا هو الجزء الغريب في المعادلة – بنات يهتكن عرض رجال. كان المألوف أن نسمع عن رجال يهتكون عرض النساء، ولكن يبدو أن الأوضاع تنقلب. أمامنا الآن خلطة معقدة من العنف العنصري والجنسي، موجَّهٌ إلى الرجال – "المحتجزين" العراقيين الذين يُعامَلون كالكلاب. دفعتني صورة الرجل المربوط بحزام الكلب، وما قرأت عن أن الحراس كانوا مأمورين بأن يعاملوا السجناء كالكلاب، إلى أن أسأل: "ومن يعامل الكلاب بهذه الطريقة؟" (كنت في ذلك الوقت أكتب كتابًا عن مجازات الحيوانات والحيوانية – وقد تركته مؤقتًا لأكتب الكتاب الحالي). كما أن الطبيعة الجنسية للصور جعلتها إباحية من لون غريب. ومرة أخرى ارتبكت: نساء يغتصبن ويهتكن عرض رجال؟ أليس العكس هو المعتاد؟ بدأت أشك في سر اهتمامي بالصور. عمَّا كنت أبحث وأنا أقلِّب صفحات مجلة "ذا نيويوركر" أو الطبعات الخاصة من مجلة "تايم"؟

مـاذا في تلك الصـور يجعلها آسرة إلى هذا الحـد؟ ولكني لم أكن وحدي من التقطت عيناها تلـك الصور، فقد جذبت الاهتمام العام، وتحولت إلى أخبار رئيسـة في كل وسائـل الإعلام الكبرى، ولا يزال أثرهـا موجودًا في المناظرات التي تدور حول سلطـات الرئيس وتعريف أساليب الاستجواب المناسبة مقابل التعذيب.

كان مشهـد الرجل عليه رداء أسـود بغطاء رأس، وهو يقف على صندوق مـادًّا ذراعيه مصممًا تصميمًا دقيقًا صادمًـا، أظن أنه نموذج لفن التصوير الفوتوغـرافي. وبدأت أتسـاءل عن الفرق بين تلك الصـور، التي تمثل أشكالاً مـن العنف والتمثيلات الفنية للعنف. وحتى الصور التي لم تكن فيها الفتيات المبتسمات بدت مألوفة بعض الشيء بالنسبة لي – ومصدر الألفة هن ليس كتب صور الخريجين السنوية أو بطاقات المعايدة المصورة، بل الفن المعاصر. ولقد سمعـت مؤخرًا أن بعض هذه الصـور أدخلت في أعمال فنية هدفها الاحتجاج على الحرب. كان عليَّ أن أذكِّر نفسي مرارًا بأنها صور من الحياة الحقيقية، صـور من الحـرب. كان ذلك جزءًا مـن مشكلتي، لم تكن تلـك الصور تشبه غيرها من صور الحرب التي رأيتها، بل كانت صور حرب بها نساء مبتسمات، ورجال في أوضـاع جنسية، وبنات يرفعن إبهامهن سعادةً ورضًا. لهذه الصور ألفـة مـن سياقات أخرى غير الحرب. بدأت أتسـاءل عن طبيعة هذه الحرب التي جعلت صور "أبي غريب" آخر صيحة في التصوير الحربي. أما الصلات بـين النساء والجنس والحرب التي أوحت بهـا هذه الصور، فهي التي جعلتني أفكر في الصلة بين الجنس والعنف بوجه عام.

وفي الوقـت نفسـه تقريبًا الذي بدأت أفكر فيـه في النساء الضالعات في أحـداث هتـك العرض في "أبي غريب"، بدأت ألاحـظ تقارير عن الفدائيات

الفلسطينيـات، ومرة أخرى بدأت الأغلفة اللامعة للمجلات الإخبارية واسعة الانتشـار تجـذب انتباهي. ومرة أخرى أدهشتني تلـك النساء العنيفات. ومع ذلـك سرعان ما جذبتنـي التغطية الإعلاميـة لهن. لماذا تظهـر تلك النساء علـى أغلفة المجلات؟ ولماذا تتصدر أخبارهن الصحف؟ وهل انتهاكات "أبي غريـب" ستحـدث الصدمة نفسها لـو كان الحراس جميعًـا من الرجال؟ فإننـا لا نرى صور الفدائيين من الرجـال على أغلفة المجلات ينظرون جميعًا إلينـا بعيون بنية حزينـة. بدأت أشك في أن المخيلة العامـة ترى عنف النساء أشـد جاذبية، وأكثر لفتًا للنظر، وأبعد عن التوقع من عنف الرجال، فالرجال يخوضـون الحروب دائمًـا... أما أن تكون النساء محاربـات، أليس هذا شيئًا جديـدًا؟ وسرعان ما وجدت نسقًا متكـررًا في الوصف الإعلامي لتلك النساء المحاربـات، إذ يشـار إليهن على نحو متكرر ومتسـق بوصفهن أسلحة – لسن جنديـات يحملن أسلحـة، أو متطرفات معهـن قنابل، بـل إن الجسد الأنثوي نفسه في حضوره وأصل وجوده يشار إليه بوصفه سلاحًا.

عندمـا بدأت أكتـب الفصل الأول في هـذا الكتاب عـن تصوير النساء كأسلحـة في الإعلام، جذبني مـرة أخرى تقرير إخبـاري أربكني: لقي صبي في الثامنـة مـن عمره حتفه وهـو يلعب ما سماه التقرير "لعبـة الشنق". وقد أدهشنـي أن أعرف أن الاختناق كان من أشكال الترفيه المنتشرة بين الصغار والمراهقين. وبدأت ألاحظ مقـالات أخرى عن صغار ماتوا وهم يلعبون "لعبة الاختنـاق" أو "لعبـة الشنق"، التـي انتشرت فيما يبـدو أكثر من ذي قبل بسبـب الإنترنت. وظهرت لي بعـد ذلك مقالات صحفية عن "الجرح" وغيره مـن أشكال إيذاء الـذات المنتشرة بـين المراهقين. سألت نفسـي: لماذا يؤذي هـذا العدد الكبير من المراهقـين أنفسهم حتى يشعروا، كمـا تقول التقارير،

"بالانطـلاق"، أو بأنهـم "أحيـاء"... كانـوا يجرحـون أنفسهـم ليشعروا بالحرية، وكانوا يقتلـون أنفسهم ليشعروا بأنهم "أحياء". مرة أخرى، بدأت أسأل عن نوع الثقافة التي تخرج شبابًا يؤذون أنفسهم وغيرهم بالعنف باسم الحرية أو الحيـاة... أو "لمجرد المرح". هؤلاء هم الصغار الذين نقابلهم كل يوم، فهم طلابي وأبناء أصدقائي وربما من عائلتي.

لقد كتبت هذا الكتاب لأفهم لماذا يرتكب الشباب الأمريكي أعمال العنف المميتة. ولقد ركزت هنا على العنف في الحرب، ولا سيما تمثيلات عنف النساء وارتباطـه بالصور النمطية للعلاقة بـين الجنس والعنف عمومًا. ويتناول هذا التحليـل موضـوع "الجرح" و"لعبـة الشنق"، وغيرهما مـن أشكال العنف الموجّـه ضد الآخريـن، بوصفها أعراضًـا لثقافة العنف، التـي بدورها نتيجة لتقييد خيارات التعبير عن العواطف، ولا سيما العواطف العنيفة.

كيلي ناشفيل، تنيسي

obeikandl.com

obeikandl.com

شكر وتقدير

أَوَدُّ أن أشكـر وندي لوكنر محررة كتبي في مطبعة جامعة كولومبيا، فقد كان حماسهـا سندًا لي في رحلة المراجعات الطويلـة لهذا المشروع. كما أشكر إدواردو منديتـا وسينثيـا ويليـت، ومعهما ناقـدًا لا أعرف اسمـه، يعمل لدى مطبعـة جامعـة كولومبيا، على تعليقاتهـم المفيدة للغايـة، واقتراحاتهم التي أبدوهـا على صورة سابقة للكتاب. والشكر واجب كذلك للجمهور بجامعة دي بول في شيكاغو، حيث عرضت صورة مختلفة تمامًا من الفصل الأخير. وإنني لأدين بالفضل لزملائي بجامعة فاندبيلت لتعليقاتهم وأسئلتهم التي طرحوها بعـد أن عرضـت صورة سابقة للفصـل الأول. وأقدم شكـرًا خاصًّا إلى كولن (جوان) ديان وكاترين جاينز وديفيد وود على اقتراحاتهم. وإنني لمدينة أبدًا لأسرتي بالدعم والتشجيـع. وأقدم أعمق امتناني إلى بينيتو تريجو لأحاديثنا المتواصلة التي غَذَّتْ هذا المشروع. كما أعبر عن خالص تقديري لصحبته في طريق الحياة الصخري المتعرج.

openkanal.com

obeikandl.com

مقدمة

الجنس والمخدرات والروك آند رول

ليست هذه الحرب كغيرها في كونها بلا جبهة قتال، والنساء فيها مشتركات في المعارك مع الرجال. صحيح أن الجنديات لا يُسمَح لهن، من الناحية الفنية، بالوجود في الخطوط الأمامية، ولكنهن يشاهدن العمليات طوال الوقت فيقتلن ويُقتلن. إن النقص في الأفراد العسكريين يؤدي إلى توسيع القواعد المتعلقة بالنساء في القوات المقاتلة الأرضية، والشعب الأمريكي لم يعد تصدمه فكرة موت النساء في الحرب، حسبما تؤكد التقارير. ولم يعد الاهتمام بالقتلى من النساء يتجاوز الاهتمام بالقتلى من الرجال[1]، بل إن اشتراك النساء في الوحدات المتكاملة لا يكاد يلاحظ. والنساء في هذه الوحدات تسعى إلى تهيئة أجسامهن حسب المعايير الحربية الذكورية - فيأخذن أشكالاً أحدث من وسائل منع الحمل لإطالة المدة بين الدورات الشهرية أو منعها تمامًا، وباستخدام أداة محمولة للتبول يوزعها الجيش للرحلات الطويلة (يسميها النساء "ويناس"). تخدم النساء في الجيش وتموت، ولكن حسب كلام القبطان البحري لوري ماننج: "يحمل كثير من المحافظين مشاعر سيئة جدًّا تجاه تدريب الأمهات على القتل"[2]. ويتوقع بعض صناع السياسة الحربية أن الجدل سيُفتَح مرة أخرى حول مشاركة النساء في القتال، بعد انتهاء هذه الحرب مباشرة.

على الرغم من أن موت النساء في العراق لا ينال اهتمامًا كبيرًا من الإعلام أو من عموم الأمريكيين، إلا أن ضلوع النساء في المعاملة المهينة "للمحتجزين" في سجن "أبي غريب" بالعراق وسجن خليج جوانتانامو بكوبا، من الأمور شديدة الأثر التي لا تزال تلقي بظلالها على المناظرات الخاصة بشأن أساليب الاستجواب المقبولة، ومشاعر الأمريكيين تجاه هذه الحرب. كما أن الطبيعة الجنسية للإهانات يستخدمها بعض المتحاورين ليقول بضرورة استبعاد النساء من الجيش، وليقول: إن مجرد وجودهن أطلق العنان للعنف الجنسي. وعلى الرغم من أن موت الجنديات لا يلقى اهتمامًا كبيرًا، إلا أن تقارير عنف الجنديات وإيذائهن المحتجزينَ قد استولى على خيال عموم الناس. فلماذا؟ لماذا ولَّدت صور النساء المعتديات في سجن "أبي غريب" ذلك القدر من المداولة الصحفية والإعلامية؟

إن كتابي هذا محاولة للإجابة عن هذا السؤال عن طريق تحليل كل من التغطية الإعلامية، والأحداث نفسها في إطار نظرة بورنوجرافية (إباحية) للجنس والعنف يتم تطبيعها من خلال وسائل الإعلام واسعة الانتشار، وهذه النظرة أو الرؤية البورنوجرافية تعني أن المنظور إليه يكون مصدر لذة، أو مشهدًا ممتعًا في ذاته، دونما اهتمام بذاتية المنظور إليهم أو أنهم في موضع مهانة. وتعزز هذه النظرة البورنوجرافية قوة الناظر وسلطته، في حين تمحو أو تحقِّر قوة المنظور إليه وسلطته(3). هذه الطريقة في النظر تعمل على المستويين الحرفي والمجازي. فالجنس والعنف صارا حرفيًا مناظر "تُشاهَد"، وقد ارتبطا مجازيًّا بمخيلتنا الثقافية، كما يثبت ذلك كون عبارة "الجنس والعنف" صارت جزءًا من مفردات حياتنا اليومية - وبتعبير أفلام هوليوود: من الصعب أن نذكر كلمة دون أخرى.

يمكـن القـول إذن: إن هذا الكتـاب - عمومًا - عن الصلـة بين الجنس والعنـف في الثقافـة المعاصـرة. وبتحديـد أكبر، هـو عن تجسد هـذه الصلة المتصورة في ساحة الحرب التي تدور حاليًا في الشرق الأوسط. كذلك فهو عن الـدور الجوهري الذي تلعبـه هذه النظرة البورنوجرافيـة في إشعال الحرب، وكيـف استخدمت تاريخيًّا، بل نشأت في سياق العنف الإمبريالي والكولونيالي (الاستعمـاري). وكمـا سنرى، فإن الاحتـلال الأمريكي للعـراق، يأتي ضمن سلسلـة طويلة من المغامرات الإمبرياليـة الاستعمارية التي قام بها "الغرب" في "الشرق".

إن وضع أحداث "أبي غريب" وتغطيتها الإعلامية في السياق التاريخي للعنف الاستعماري الغربي يسمح لنا بأن نراها استمرارًا للممارسات العسكرية التـي تطبِّع العنـف، ولا سيما عندما يتعلق بالنسـاء والجنس. فعندما ظهرت الصـور على الناس، صحبتها موجة من الغضـب والاتهام. فقد عُدَّتِ الصور "صادمة" ومزلزلة للعقل. بعض الناس عَدُّوا أن المشكلة هي الصور نفسها، ولكـن في الوقـت ذاته كان ثمة شـيء مألوف ألفة غريبة يتعلـق بتلك الصور، هـذا الخليط من الصدمة والألفة هو ما أسعى إلى فهمه في هذا الكتاب. فإن وجـوه الجانيات توحي إلى أنهن كطالبات في صـور كتاب الخريجات السنوي المصـور، فإذا حكمنا عليهن مـن تعبيرات وجوههـن وإشاراتهن، فهذه صور ظفر وانتصار، فهـي مليئة بالبسمات والأيادي مرفوعـة الإبهام. والصور في هـذا السيـاق تعد جوائز تقول: إننـا الرابحون في هذه الحـرب ضدهم. هذا المنظـر الاحتفالي أو النظر الاحتفالي المتأصل في هذه الصور هو جانب واحد من جوانب النظر البورنوجرافي. إن الأشخاص موضوعات هذه الصور أُنتُهِكَ عرضهم وأُذِلوا وأُهِينوا وتعروا، وعندما تصور تلك الأجساد المرتعشة الضعيفة

بجانب الأفـراد العسكريين الأمريكيين المنتصريـن، فالرسالة الواضحة هي أننـا نستطيـع أن نفعل مـا نريد بهـؤلاء الأجانب من مقاتلـي الأعداء، فنحن في مقعـد قائـد المركبة، بينما هم الركاب في هـذه الرحلة، وهي بالطبع رحلة سعيدة لنا على حسابهم.

أقول في كتابي: إن هذه الصور "الصادمة" مألوفة لدينا ليس فقط بسبب تاريـخ العنف الاستعمـاري المرتبط بالجنس، بل بسبـب تاريخ من التداعيات يربـط بـين النسـاء والجنس والعنـف، بـل إن الارتباط بين الجنـس والعنف يستغل الصور النمطية التقليدية وأساطير النساء الخطيرات أو اللاتي يمثلن تهديـدًا، وهي صور وأساطير بنيت عليها ثقافتنا ولا تزال، فدائمًا ما ارتبطت النسـاء بسقوط الإنسان منـذ ادعاء إغراء آدم بالثمـرة المحرمة. وهنا أقوم بتحليل الصور الفكرية والحقيقية لنساء من داخل الحرب في الشرق الأوسط بما فيهـا أفغانستان والعـراق وفلسطين، وذلك بخصوص تـراث الإمبريالية الاستعمارية، وتراث التداعيات الذكورية المرتبطة بالنساء والجنس والموت.

أقـوم في الفصول الآتية بنزع طبقات من المعنـى البصري والبلاغي في محاولـة لفهم الدلالة الأعمق لهذه "الحرب على الإرهاب" - منها استخدام العسكريـين النساء "لتليـين" السجناء، وصور النسـاء مرتديات "البوركا" في أفغانستـان، والدفع بأن معتديـات "أبي غريب" كن "يمزحن"، وأساليب الإعـلام العسكـري مثـل الصحافة المصاحبـة للوحدات - مـع الارتباط بين الجنـس والعنف في أفلام هوليوود الأخيرة. وعن طريـق تأويل هذه الأحداث والصـور حـال عملها داخل السيـاق الأكبر لثقافـة تدور أشكالهـا الترفيهية الأساسيـة حـول الجنس والعنف، نتعلـم المزيد عن وظيفة المـرأة في اقتصاد العنـف هـذا. وكذلك، فعن طريق تأويـل هذه الأحداث والصـور داخل سياق

مخيلة ثقافية يمسك الجنس والعنف بتلابيبها، يمكننا أن نبدأ في فهم استثماراتنا في العنف. وأملي أن يسهم فهمنا لاستثمارنا في العنف في قطع دائرة النوازع العنيفة، وإيقاف تحويل خيالاتنا العنيفة إلى واقع.

يهدف هذا المنهج متعدد الأوجه الذي أتبعه إلى معالجة بعض العلاقات بين خيالاتنا ورغباتنا ومخاوفنا وبعض ألوان هوسنا، هذا من جانب، ومن جانب آخر معالجة البلاغة الإعلامية (البصرية والسردية)، وكذلك السياسات العامة. بتعبير آخر، إن أحد الأسئلة الدافعة لهذا التحليل هو: ما العلاقة بين حياتنا الروحية أو الوجدانية وتصرفاتنا أو حياتنا العامة؟ وإنني أتعمد تجنب لغة الخاص والعام؛ لأن الفرضية التي أعمل بها هي أن هذين العالمين يرتبطان تمامًا وعلى نحو وثيق بدرجة تجعل أي تمييز بينهما من قبيل الخداع، بل إن أوجه التعارض بين الخاص والعام، بين العواطف والسياسة، بين الأفراد والمجتمع، بين الطبيعة والثقافة يغذي بلاغة الحرب ويتغذى عليها. وإن الفكر التصادمي الذي يجعلنا في مواجهتهم، والذي يمحو أي مساحات مشتركة بين الاثنين يقوم بعمل في هذه المناطق الأخرى أيضًا. وكما سنرى، فإن إنكار المناطق المشتركة - تلك المناطق الرمادية التي لا يسهل فيها تبين قطب من الآخر - يزكي ثقافة العنف.

وأحاول في الفصول الآتية أن أحدد ملامح معنى أعمق في البلاغة البصرية والسردية للحرب على الإرهاب. ولُبُّ اهتمامي في هذا التحليل هو كيفية إدراك هذه الحرب وتمثيلها، وهناك فرضية حاضرة أخرى، وهي أن العمل على تأويل تمثيلات الأحداث في وسائل الإعلام الذائعة يمكن أن يكشف لنا شيئًا عن رؤيتنا لأنفسنا ورؤيتنا للآخرين، فإن القراءة الناقدة للإعلام يمكن أن تعلمنا شيئًا عن مخاوفنا ورغباتنا الراسخة التي تدفع تفكيرنا

وسلوكنا، قد لا نكون واعين بالمخاوف والرغبات الكامنة وراء تصوراتنا عن أنفسنا وعن الآخرين، وتصرفاتنا حيال أنفسنا وحيالهم. وقد حاولت باستخدام أدوات نظرية من الفلسفة والتحليل النفسي وعلم الاجتماع أن أستخلص الأخطار الوجدانية والسياسية في حربنا على الإرهاب، عن طريق تمشيط التمثيلات الإعلامية للنساء الضالعات في العنف، وذلك بمقارنة مناقشات تحرير النساء هنا بأماكن أخرى، وبدراسة دور تكنولوجيات التسجيل البصري في تجربة الحرب وبتحديد أساليبنا في تبرير عنفنا (عالي التقنية) بما في ذلك تصور أن ضلوع النساء "يخفف الصفعة" بعض الشيء.

ففي حالة أبي غريب، فإن النساء، كما يظهر، قد أجبرن الرجال على أداء أوضاع جنسية، وقد أربك ذلك منظمات حقوق الإنسان نفسها، وهي تحاول تصنيف هذه السلوكيات، أو مجرد تعريفها بوصفها من أفعال هتك العرض. فالطبيعة الجنسية للصور تزعجنا؛ فمن جانب، تبدو "الابتسامات المرحة" أو ابتسامات فرق التشجيع النسائية" التي ارتسمت على وجوه هؤلاء المراهقات متنافرة مع السياق الحربي. ولكن، كما أقول في الفصل الأول: إن مجرد فكرة استخدام النساء أدوات في التحقيق تلعب على المخاوف القديمة من النساء، والتصور غير العقلاني بأن الطبيعة الجنسية الأنثوية سلاح خطير. إن هذه الألفة في الربط بين النساء والجنس والسلاح هي التي تجعل تلك الصور متميزة تميُّزًا غريبًا – فغرابتها توازي ألفتها. كان النساء في الماضي يُشَبَّهْنَ "بالقنابل"، وكانت جاذبيتهن الجنسية تُصوَّر على أنها سلاح مميت، وعليه ينبغي ألا يفاجئنا الانفجار الحربي، لا المجازي، للنساء في مشهد الحرب حاليًا. فمن النساء الضالعات في سجون أبي غريب وخليج جوانتانامو، إلى الجندية جيسيكا لينتش التي تم إنقاذها من الأسر، إلى

الفدائيات الفلسطينيات، كلهن تحولن، على يد التغطية الإعلامية الحديثة، إلى "أسلحة حربية". وكما سنرى، في كل حالة من هذه الحالات تستخدم مجازات "الأسلحة" مرة بعد أخرى لوصف النساء والطبيعة الجنسية الأنثوية. في الفصل الأول أقوم بتحليل انبهارنا بما نتخيل أنه قوة مميتة لهؤلاء النساء.

كذلك فإنني في الفصلين الأولين أفحص الخطاب المحيط "بالنسوية" و"تحرير" المرأة كما أُستخدم في سياق الحرب في الشرق الأوسط. فمن جانب ألقي باللوم على النسوية بسبب عنف النساء تجاه الرجال، بافتراض أن النسوية منحت النساء حقًّا مساويًا للرجال لممارسة القتل والإيذاء. ومن جانب آخر، استخدم اهتمام النسوية بتحرير النساء لتبرير العمل العسكري في الشرق الأوسط وأفغانستان تحديدًا.

في الفصل الثاني أبين أن خطاب إدارة بوش عن تحرير "النساء مرتديات الحجاب" في أماكن أخرى يستدعي تصورات الحرية ومكاسب النساء هنا. كما أن هذا الخطاب يطمس حقيقة أن هذه الحرية تجلب معها أشكالاً أخرى من القيود هنا وفي الخارج. وأحد أمثلة هذه القيود الانضباطية المفروضة على النساء في الولايات المتحدة الارتفاع المستمر في مستويات "الأمومة المهنية": فالأمهات مطالبات بعمل كل شيء في الأسرة والحياة المهنية، ولو كان معنى ذلك اللجوء إلى البروزاك أو الكافيين أو الحبوب المنومة حتى يحافظن على أداء جدول أعمالهن المشحون. وفي هذا الفصل أربط بين خطاب تحرير النساء في الشرق الأوسط والخطاب الذي استخدم في تجارب استعمارية سابقة لتبرير العمل العسكري الخارجي، وقت كانت نساء الوطن محرومة الحقوق. كما أبين أن الحرية التي نحملها معنا لهؤلاء

النســاء، تم تصويرها على أنهــا حريتهن في التسوق مما يوحي إلى أن مفهوم الحريــة الأمريكية المقدم للعالم من خلال الحــرب يمكن أن يختزل في حرية الســوق. وفي هــذا الخطاب فإن حق النساء في التســوق وفي ارتداء ما يشتهين يصير مقياس الحرية الكوكبية، كما أن حرية المرأة في أن تكشف ذراعيها تُعَدُّ علامة على الحرية والتقدم.

إن تداعيــات كلمــة "الحرية" محــل دراســة في مواضع الكتــاب كافة، حسبما تظهــر في الإعلام والخطابات الرئاسية والمقالات العلمية. ففي تاريخ الاستعمــار صارت الحرية سببًــا للحرب، وحملت وزر عنف النساء في الجيش الأمريكــي عن المشاركــة العنيفة للنساء في عمليــات التفجير الانتحارية. وقد أعلن الرئيس أنه يريد أن يأتي بالحرية والديمقراطية للعالم كله، وأن هجمات سبتمبر الإرهابية كانت من أعمال الحرب ضد العالم الحر بأسره. فإذا كانت الحريــة معرضــة للخطر في الحرب علــى الإرهاب، فمن الــلازم أن نسأل ما الذي نعنيه بكلمه "الحرية".

في الفصــل الثالــث: أحلل خطــاب الحرية كمــا استخدمتــه إدارة بوش لتبريــر الحرب. وفي هذا التحليل للخطابــات الرئاسية تنكشف صلة جوهرية بــين الحرية والممتلــكات، وبين الحرية وفكــرة التملك. فإننــا نحارب لنحمي ممتلكاتنا وحقنا في التملك. مرةً أخرى، تختزل الحرية في السوق الحر، ففي هــذه الخطابات يعمل خطاب الحرية بالتناغم مع خطاب الخير والشر. ومرةً أخــرى، تختزل حماية الخــير في حماية البضائع. وهكذا فــإن معاني الحرية والعــدل والخير تصبح من المنقولات، بحيــث يمكن حرقها في سوق السياسة، لتبريــر العمــل العسكري لكسب الــثروة لأمريــكا وتأمينهــا، وتصبح الحرية والخــير دعوات الرأسمالية الكوكبية عالية الصــوت. وهنا يصير فتح أسواقٍ

جديـدة وضمان عقود للشركات الأمريكية علامة على النجاح في الحرب على الإرهاب.

ولكن، كما سنرى، فإن الخوف من ضياع ثروتنا وعزمنا على أن نحميها مهما كلف الأمـر، يؤدي بنا إلى وطنية مريضة بالريبة، حيث نشعر أن ثروتنا مهددة من كل جانب. أما الوجه الآخر من مرض الريبة هذا، فهو وهم العظمة الذي يـدل عليه الحديث عن "العـالم الحر بأسره"، و"جلـب الديمقراطية للدنيـا كلها". أما تصـورات كوننا مركز الكون، وأن العـالم كله تحت أمرنا، فهـي تتسـق مع تصور كوننـا محاطين بقـوى الشر المتحفـزة لتدميرنا، وهي أعراض كلاسيكية لمرض البارانويا، حسب مصطلحات التحليل النفسي. إن إحساسنـا بأنفسنا كأمة يقوى بإيجاد عدو مشترك، وبأن نرى أنفسنا نخوض معركـة الخير ضد قوى الشر حولنا من كل صـوب. كما أن إحساسنا بأنفسنا كأحـرار يترسخ بمقارنـة أنفسنا بأناس آخرين، ولا سيمـا النساء، في أماكن أخرى ونتصور أنهم مستعبدون.

إن تضخـم خطـاب الخير ضد الشر ونحـن في مواجهتهم يغذي وطنية مريضـة بالبارانويا، تعمل بـلا تفكير. وربما كان الأجدر بالقلق في الخطابات الرئاسية هو الربط بين هذا الخطاب والأبدية والله، فإننا نخوض حربًا أبدية؛ لأن الله في جانبنـا. وقد ختم بوش خطابه في ذكرى أحداث 11/9 لعام 2006 بقولـه "إننا نسير قدمًا بثقة في تلك الـروح – روح الشعب الأمريكي – والثقة بهدفنـا، والإيمـان برب محب هو الذي جعلنا أحـرارًا". فإذا كنا نحارب إلى الأبـد، فإننا نخوض حربًا بلا نهاية، حربًا دائمة دونما احتمال للسلام. وثمة جانـب آخر خطير في خطـاب الأبدية هذا، وهو انتزاعه الحـربَ من سياقها الاجتماعي التاريخي. وعلى ذلك فليست الحرب من أجل البترول أو الأسلحة

النوويـة أو الحـكام المستبديـن، أو المحافظة على مكانة أمريـكا بوصفها قوة عظمـى، أو إعادة بناء العـراق، أو حتى إجراء انتخابات حـرة في العراق، بل حـرب من أجل الخير الأبـدي وإيماننا بالله. ويتمثل خطـر نزع الأحداث من سياقهـا الاجتماعي والتاريخي في أننا نحرم مـن المعلومات الضرورية لتأويل هذه الأحداث وفهمها. ونعطي صورًا بلاغية انفعالية تحرك المشاعر، مشاعر الكراهية والانتقام العنيفة، ولكننا لا نشجع على التفكير الكاشف لحقيقة تلك المشاعـر، بل نجد تشجيعًا على مشاعر العنف والرغبة في الانتقام دون تفكير في استثماراتنا في ذلك العنف أو في تبعاته.

وليسـت الإدارة وحدها هي التي تقوّض قدرتنـا على التفكير النقدي في السياسـة العامة والحرب. فالإعلام، ولا سيما تغطيته أحداثَ 11/9 والحرب في العـراق، يسهم في تفاقم هـذا الارتباك. وأقوم في الفصـل الثالث بتحليل التقاريـر العسكرية المصاحبـة وشرائط الأخبار المتحركـة والأحداث الممثلة في العروض الإخبارية، وكيف تخرج الأحـداث عن سياقها، بل تطمس الفرق بـين الخيال والواقع. إن هذه التمثيلات والسيناريوهات المتخيلة تزرع الخوف والوطنية المريضة بالبارانويا. وتسمح التقارير المصاحبة، في أحسن الأحوال، باختلاسـ النظـر إلى حياة الجنود أو المدنيين في زمـن الحرب، ومن ثَمَّ فهي تثير التعاطف أو التقمص، ولكن هذه التقارير التي تعرض شرائح من الحياة تقـدَم خارج السيـاق، وتتخللهـا مشاهد تمثيليـة وإعلانات تجاريـة وترفيه، فيكـون التعاطف أجـوفَ، ولا يساعدنا على فهم الموقـف أو يؤثر في مشاعرنا أو معرفتنـا. وفي أسـوأ الأحوال، فـإن الصور البصرية الآتيـة من أفغانستان والعـراق تواصـل تاريخًـا طويلاً مـن استخـدام التكنولوجيـات البصرية في المشروعات الاستعمارية.

في هـذا الفصل أقوم بدراسة الرغبة في تغطية الحياة والتقارير المرفقة مـن حيث أثرها في شعورنا بالزمن وشعورنا بالواقع، وعلاقتهما بهذا المشروع الاستعمـاري، فأقول عن التقارير الحية المرفقة: إنهـا تخلق حاضرًا مستمرًّا يخـرج الأحداث عـن سياقها ويطبِّعها، ومن ثَمَّ يغلـق إمكانية التأويل النقدي اللازم للتفكير في معنى تلك الأحداث. إن الحاضر المستمر المرتبط بالإذاعة وإعـلام الإنترنت يسهم في كسر الحدود بين الخيال والواقع. وأنا أصف كيف تـؤدي مشاعـر الضعف وفقـدان الأمان إلى خلـق شكل دفاعي مـن الوطنية المريضة بالبارانويا. فعندما يحـل الخيال محل الواقع، وعندما يصير الواقع رهن التسويق، يزداد العنف تطرفًا.

إذا علمنـا أنـه بعـد هجمـات 11/9 الإرهابيـة مباشـرة كانـت كلمـة "vulnerable" (عرضـة للجـرح) مـن أكـثر الكلمـات استخدامًـا، فمـن الضـروري أن نفكـر في معنـى الجرح فيما يتعلـق بالعنف، ولا سيمـا أن هذه الكلمـة يعقبهـا غالبًا كلمة "حـرب". وفي الفصل الأخـير، أستكشف الصلة بـين الجـرح والعنف، حتى نفهـم لماذا تحـل الرغبة في الحـرب سريعًا محل الإحساس بالجـرح. ففي الآونة الأخـيرة أقر الفلاسفة بـأن الجرح أو خوف التعرض لـلأذى أحد مكونات بشريتنا. وعلى سبيـل المثال، ترى جوديث بتلر وجوليـا كريستيفـا أن مفهوم الجرح يعنـي أننا كلٌّ بطريقتهـا، لا بد أن نقبل قابليـة الجرح فينا، لا أن ننكـره؛ لأن إنكار قابلية الجـرح يؤدي إلى الحرب. والمؤكد أن توهم القـوة المطلقة، واستبعاد قابلية الأذى يضم العنف بطبيعته، فكلمـة "vulnerable" تعني أن ثمة جارحًـا ومجروحًا. وهنا أستبعد القول: إن العنـف جزءٌ من الطبيعة البشرية، وأقترح بـدلاً منه فكرة أن القدرة على تخطي العنف عن طريق تجاوزه هو ما يميز البشرية.

يبدأ تأملي في فكرة قابلية الجرح بتحليل البراءة التي يدفع بها المتهمون في أبي غريب؛ إذ يقولون في محاكماتهم: إنهم "كانوا يمزحون فقط" أو "يتسلون". وبغض النظر عن درجاتهم ومكانهم في ساحة الحرب، فعلى مستوى آخر قام هؤلاء الجنود والجنديات بإيذاء السجناء ليسلوا أنفسهم. وقد ادعوا الجهل بالطقوس الدينية الإسلامية، وادعوا أنهم أبرياء أخلاقيًّا، ولو أدينوا جنائيًّا. وفي الفصل الرابع، أقوم بدراسة ذلك الفاصل بين البراءة الأخلاقية والقانونية، بالإشارة إلى فاصل أشد بين الأحاسيس البدنية والقانون أو المعنى في ثقافتنا. فأحلل كيف تكون التبريرات القائمة على فكرة "الشاة السوداء" أو "عدد قليل من التفاحات الفاسدة" في أبي غريب، أعراضًا لمرض في جزء من ثقافتنا يطمس الحدود بين البراءة والجهل والعنف.

إن تحليلي يدفعه السؤال الآتي: ما أوجه الثقافة التي تسمح بتنشئة جنود وجنديات صغار السن يقومون بإيذاء، بل بتعذيب الآخرين من باب "التسلية"؟ وأجيب عن هذا السؤال بالتركيز على جوانب عجز القوانين المدنية والأخلاقية في مجتمعنا عن إكساب المعنى لحياتنا الوجدانية ووجودنا المتجسد. فالقانون - وهو بمعناه الأوسع ما يمنح الحياة بنيتها الاجتماعية - قد استحال إلى مجرد لوائح وشفرات تنظيمية لا تكسب الحياة معنىً قويًّا بليغًا. فهذه اللوائح تنظم وتضبط، وفي الحالات القصوى تعاقب أبداننا، ولكنها لا تضفي المعنى المناسب على لَذَّات البدن وآلامه. ومن نتائج ذلك تولُّد ما أسميه "الأفراد الجهنميين"، وهم أناس انفصلت حياتهم الوجدانية عن التعبير ذي المعنى، أو بلغة التحليل النفسي أناس انقطعت لذاتهم وآلامهم البدنية عن أي سمو ذي معنى. هذا الانقطاع بين البدن والمعنى، أو بين العاطفة والقانون له كذلك أثر في اتجاهاتنا نحو القوة المشروعة وغير المشروعة، ولا سيما فيما

يخص رؤيتنا للانتحاريين أو "مفجري الجسد"، كما تسميهم الفيلسوفة أدريانا كافيريرو.

أما الفصل الأخير فتأملٌ في أشكال المعنى الثقافي (أو غياب المعنى)، التي أثمرت هذا المرح الخالي من الإحساس بالذنب في الانتهاكات الجنسية في أبي غريب من جانب، واعتناق الموت من قبل المفجرين الانتحاريين من جانب آخر. فما السياقات الثقافية التي تتيح للشباب والشابات أن يهتكوا عرض السجناء "ببراءة" لمجرد "التسلية"؟ وما السياقات الثقافية التي تتيح لمفجرات انتحاريات أن يقدمن حياتهن فيقتلن أنفسهن وآخرين؟ وكذلك لماذا تجذبنا صور النساء اللاتي يؤذين الرجال ويقتلنهم إلى هذه الدرجة؟ فإذا انتقلنا من تحليل بلاغة الخطاب المستخدم لوصف النساء الضالعات في أعمال حربية إلى أدوارهن الثقافية ودلالتها، فالدراسة تتوجه إلى اللذة في العنف والشغف بالموت، الذي تبديه تلك النساء وصحبتهن في سياق الثقافات والتكنولوجيا التي نسجتهن.

على الرغم من أن المفجرات الانتحاريات يختلفن عن معتديات أبي غريب في أوجه كثيرة، إلا أن الفريقين يشتركان في استخدام الأساليب البورنوجرافية، ورؤية الاحتفال بالنصر ويعتمدان عليها. فالإرهابيون الانتحاريون يعتمدون على الإعلام ليرهبوا الناس، ويعتمدون على الرؤية البورنوجرافية ليصدموا أعداءهم. كما يصور الإرهابيون عمليات الإعدام بقطع الرأس لتعرض على شاشات التليفزيون والإنترنت، بوصفها دليلَ إثباتٍ على عنفهم، كما يستخدمون التلفزيون والإنترنت لينشروا صورًا تشهد فيما يبدو بانتصارهم في حرب للخير على الشر، وللمؤمنين على الكافرين. وعلى الجانبين، صار الحرب والعنف مشاهدَ وفضائحَ إعلامية تضاف إلى الممارسات السياسية في

سيـاق اقتصاد كوكبي أو تاريخ عالمي. تنزع هذه المشاهد من سياقها وتُسْتَغَل؛ لأنها سلعة إعلامية رائجة إذاعيًّا وعلى الإنترنت.

إلى هـذا الحد يسهم الإعلام في تعزيـز النظر البورنوجرافي الذي يؤدي بسهولـة إلى الرؤيـة الاحتفالية، فإننا نجعل من أنفسنـا أبطالاً لقصصنا عن طريـق تصوير المهزوم علـى أنه مجرد موضوع لأنظارنـا، وهم يفعلون الشيء نفسه. وأنا أقترح بديلاً للرؤية البورنوجرافية، وهي ما أسميه "رؤية الشهادة". فبعـد أن قدمت هذا المفهوم في كتاب سابق بعنوان "الشهادة"، أفصل هنا في بيـان أن المعنى المـزدوج للكلمة يمكن أن يساعد على إثـراء فهمنا لما يمكن أن نراه بلفت النظر إلى إدراك مناطق الخلط في الحياة وليس بإنكارها. وللشهادة معنيـان، أولهمـا المشاهدة بالعين كما في قولنا "شاهـد عيان"، وثانيهما كون المـرء شاهدًا على شـيء لا يراه مباشرة بل عايشه، مثـل أن يكون شاهدًا على فظائع الحـروب. ويساعدنا الخلـط في معنى الشهادة علـى استدعاء مناطق الخلـط في خبراتنـا، وهو نوع من نقـل أو إعادة حِسِّ الحيـاة إلى فعل الرؤية. وجوهـر الأمـر أني أركز على ضرورة الاهتمام بالسيـاق الاجتماعي التاريخي للأفـراد إلى جانـب إرادتهـم الذاتية، بل يمكـن أن نقول روحهـم. فالشهادة إذن تقتضـي رؤية الموقف الاجتماعـي التاريخي الذي يضع المرء حيث هو، كما يقتضـي رؤية روحه أو إرادته التـي تسمح له بتغيير ذلك الموقف. وهنا تتضمن الشهادة الاهتمام بالماضي والمستقبل في علاقتهما بالظروف الحاضرة، وليس إلقائهما في الحاضر الدائم لأغلب البث التليفزيوني وصور الإنترنت.

وفي الختـام أقول: إن الشهادة يمكن أن تثري مفهومنا للحرية؛ فالحرية المختزلـة في السـوق الحـرة ليسـت كاملة. حتـى الحرية المختزلـة في غياب المحظـورات ليست كاملة. فمن دون حرية المرء في خلق معنى حياته، ولا سيما

معنى جسده، تكون الحرية فارغة. وربما يكون هذا هو السبب في أن كثيرًا جدًّا من مواطني "العالم الحر يتعاطون أدوية مضادة للاكتئاب (البروزاك) والأقراص المنومة والمسكنات سعيًا إلى ملء فراغ، سببه تفريغ حياتنا من المعنى. وربما هذا هو السبب في أن كثيرًا جدًّا من شباب الطبقة الوسطى الذين يعيشون في أرض الأحرار يلجأون إلى جرح أنفسهم أو ممارسة "لعبة الشنق" حتى يشعروا بالحياة، أو على العكس من ذلك يأخذون في إطلاق النار عشوائيًّا داخل مدارسهم المحلية. إن انتشار الاكتئاب وتعاطي العقاقير الطبية، وجرح الذات، والعنف بين الشباب كلها تشير إلى وجود مشاعر قوية قابعة تحت سطح ثروتنا ورخائنا، مشاعر تصير هدَّامة عندما لا يكون لها منافس صحي أو بدائل.

إن ضغوط السوق الحرة تخلق مخاوف ورغبات يظل مسكوت عنها وباطنية؛ لأن التأويل بمعنى عميق يناقض هذا المفهوم المسطح للحرية، فإن حرية السوق لا تسمح بالتأويل إلا عندما يكون مربحًا، وفي سياق ديمقراطيتنا الثرية، يختزل معنى الحياة في الثروة المادية، وليس في ثروة النفس أو الروح. إن حرية النفوس، حرية الروح تعيش على المعنى، وتغذيها عملية التأويل التي تغذي المعنى. صحيح أن الجسد الجائع تصعب عليه تغذية الروح، وأن الحرب تقوم في العالم المادي على الأجساد، ولكنها أيضًا تخاض في عالم المعنى الرمزي. وحتى نفهم مخاطر الحرب على الإرهاب، لا بد أن نؤول المعنى. لا بد أن نفك شفرة معنى استثماراتنا في العنف. وحتى نكون أحرارًا لا بد أن نؤول مخاوفنا ورغباتنا قبل أن نعالجها ونتصرف وفق ما تقتضي. وإضافة إلى الأخطار السياسية والاقتصادية للعنف تجاه أنفسنا والآخرين، هناك الأخطار الأخلاقية التي تجعل الحياة ذات المعنى.

إن الأخطار التي يتناولها هذا الكتاب تأخذنا إلى أبعد وأعم من الحرب في العراق أو صور المحاربات، إلى اعتبارات الأخلاق والسياسة؛ فإن التقديم الإعلامي للحرب في العراق يمكن أن يعد دراسة حالة يمكننا من خلالها استبيان الأخطار الأخلاقية والسياسية لأفكار معينة على علاقتنا بأنفسنا وبالآخرين. فإن طريقتنا في وصف أنفسنا ووصف أعدائنا يمكن أن تحدد أسلوب استجابتنا لمواقف العالم الحقيقي السياسية. تأتي كلمة ethics الإنجليزية (أخلاقيات) من الكلمة اليونانية ethos ومعناها سمة أو أسلوب حياة. وإن هذا الشيء - سمتنا أو أسلوبنا في الحياة - هو ما يقال لنا إنه معرض لهجوم الإرهابيين، ولكن ما هذه الأخلاقيات؟ وما أسلوبنا في الحياة، ولا سيما فيما يخص الأخلاق؟ إننا اليوم نسمع كثيرًا عن "الأغلبية الأخلاقية" والمحافظة الأخلاقية للأمريكيين. ولو أن مفهوم الأخلاقيات هذا يعمل من خلال مُثل للخير مقابل الشر تفرق بين الناس والأفعال، فتجعل منها المقبول والعيب، والطاهر والدنس، والخير والشر، إلخ. وكما قلت في موضع آخر، فإن الاستعمار والظلم والحرب يبررون وجودهم باستخدام الأخلاق - ولكنها أخلاق تملأ أخلاقيتنا أو حياتنا المعنوية عدوانية وعنفًا، بل إننا نستخدم الأخلاق لتبرير أشد أشكال العنف تطرُّفًا، ولنخلي أنفسنا من المسؤولية عن أفعالنا. فإننا نعتقد أننا نملك حقًّا مقدسًا لحفظ أسلوب حياتنا، وأن العناية الإلهية تقضي بهلاك كل من يتحدى أسلوب الحياة هذا. فكيف يوجد كل هذا القتل باسم امتلاك الحق الأخلاقي - على الجانبين؟

وكامتداد لتحليل الصور الإعلامية للحرب وتحديد استثماراتنا في العنف، أقترح النظر في الأخلاق التي تخرج عن حدود أخلاقيات الخير والشر أو تتجاوزها، حتى نصل إلى أخلاقيات قائمة على اعتمادنا الجوهري

علـى الآخرين وعلى بيئتنا لوجودنا ذاته، وكذلـك لتحقيق إمكانية حياة ذات معنـى فلا بـد أن ننظر إلى أنفسنـا وإلى الآخرين بوصفنـا جيرانًا في كوكب واحـد، وبوصفنا جزءًا من منظومة بيئية واحدة وقبل ذلك بوصفنا مرتبطين بعلاقـات اعتمـاد متنوعـة بعضنا على بعض، تقـوم عليها حياتنـا، وتمنحها المعنـى. إننا نعتمد علـى الآخرين وعلى الأرض، ليـس لبقائنا فحسب، أي في حياتنـا البيولوجية ذاتهـا، بل في نوعية حياتنـا كذلك، وحياتنـا الوجدانية، وحيـاة أرواحنـا. فـإذا كنا نرفض أن نختـزل مفهومنا للحيـاة "الطيبة" في البضائـع والخدمـات لا أكـثر، فلا بد أن نتجـاوز التمييـزات الأخلاقية التي تحركها السياسة، فالأخلاق، كمـا نقدمها هنا، تتجاوز حدود العيب والمقبول في العلاقـات، فهي ليسـت مجموعة من القوانين التي تقسِّـم الناس إلى خَيِّر وشريـر، إلى سيد وتابع، أو صديق وعدو؛ فالأخلاق هي الاعتراف بأننا نعيش ونرقى بفضل علاقاتنـا مع الآخرين الذين لم نقابل كثيرًا منهم (كالمزارعين الذين يزرعون الخضـراوات، وعمال المصانع الذين ينتجون أحذيتنا، وعمال الميناء الذيـن يفرغون شحناتنـا من الأجهـزة الإلكترونية وغيرهـم). فإن علاقاتنا القريبة والبعيدة هي التي تمنح الحياة معناها، وبهذا التعريف المهم يمكننـا أن نجعل تصورنا لعلاقاتنا مـع الآخرين، مهما كانت درجة قربهم أو بعدهم، جانبًا محوريًّا في السياسات الكوكبية.

الانتصار في "الحرب على الإرهاب"

ما معنى الانتصار في "الحرب على الإرهاب"؟ هل سيعني أن الأمريكيين لـن يشعروا بالتهديد أو التعرض للأذى مرة أخرى؟ يعرِّف قاموس أوكسفورد للغـة الإنجليزية كلمة terror (الرعب أو الإرهـاب) بأنها "الخوف الشديد أو الفـزع"، فهل نشن حربًا على الخوف؟ وهل كَسْبُ هـذه الحرب يعني أننا لن

نشعـر بالخوف الشديد أو الفزع مرة أخرى؟ وهل كسب الحرب ضد الإرهاب سيعني استئصال الخوف أو الفزع من حياتنا؟

إذا كانـت هذه هـي حدود تعريـف النصر، فالانتصـار في الحرب على الإرهاب أمر مستحيل؛ لأن المكسب ليس محتملاً في هذه الحرب. فإن لم يكن الأمر كذلك فالحرب على الإرهاب هي في الواقع حرب على شيء آخر، ولكنه مغلف بخطاب الإرهاب. فما الذي يعنيه نشر عبارة "الحرب على الإرهاب"؟ ومـا نوع الحرب التي نخوضها؟ وما معنـى خسارة الحرب على الإرهاب؟ هل تعنـي، كما يـرى الرئيس بوش، أننا سنكون عبيـدًا لطغاة أشـرار متسلحين بأسلحـة نوويـة؟ إن خطاب "الربح أو الخسـارة" شأنه شأن خطاب الخير أو الشـر يوحي إلى أننا نعيش في عالم أبيض وأسود فقط، بلا ظلال رمادية، أي أننـا إما منتصرين أو خاسرين، خيِّرين أو أشـرارًا، وأنك إما معنا أو ضدنا، أو أنك منا أو علينا.

منـذ إعصـار كاترينـا، أخـذ المسؤولـون الحكوميـون في الحديـث عن استعدادات للكوارث الطبيعية بنغمة الحديث عن الهجمات الإرهابية نفسها، فهـم في نفس واحد يتكلمـون عن قدرات الوكالات الحكوميـة على الاستجابة لأحـداث مثـل أحـداث 11/9 وكاترينـا. أصـدرت وزارة الأمن القومـي بيانًا بخطوط عامـة عن الاستعداد للكوارث من الأنواع كافة، حتى إنه بعد إعصار كاترينا أصدر وكيل الوزارة لشؤون الاستعداد دليلاً لاستعداد الطوارئ يخص الحيوانـات الأليفـة، فهل يعني ذلك أن الحرب علـى الإرهاب تشمل الكوارث الطبيعيـة؟ والأهـم كيف سيشعـر الأمريكيـون بالأمن والأمـان في وجه قوى الطبيعـة القاتلة مثـل الزوابع والأعاصـير والفيضانات التـي ترهبهم بخطر الموت والدمار؟

يخوض الرئيس بوش "حربًا على الإرهاب"، ولا شك في أن الانتصار على الإرهاب والفزع والخوف سيكون أمرًا رائعًا... تصور الناس في أرجاء المعمورة كافة وقد تخلصوا من الفزع من المجاعات والأمراض، والفزع من الكوارث الطبيعية، والفزع من الحرب نفسها، وبكل وضوح، ليست الحرب التي نخوضها ضد الإرهاب من هذا النوع، فإذا كنا نتوقع أن تكون حكومتنا قادرة على رعايتنا في أثناء كارثة طبيعية، فليس من المنطقي أن نتوقع منها القدرة على منع مثل هذا الحدث من الوقوع. وهذه الحرب لا تهدف إلى وضع نهاية للمجاعات والأمراض، وفظائع الفقر في أرجاء المعمورة كافة، فالحق أننا لا نحارب لنضع حدًّا للفزع أينما وجد. وهكذا فإن ما يسمى "الحرب على الإرهاب" ينبغي أن يسمى حربًا محدودة على الإرهابيين. ولكن القفزة من الفزع أو حتى الإرهاب إلى الإرهابيين قفزة هائلة، فلا بد أن الإرهابيين أنفسهم ينكمشون في وجه الإرهاب.

فإذا كان عدونا الإرهابيين لا الإرهاب؛ فليست هذه بحرب على الإرهاب، بل حرب على أناس يرهبون الآخرين باستخدام قوة قاتلة، وفي هذه الحالة فالانتصار في الحرب على الإرهاب قد تعني القبض على كل من يستخدم قوة مميتة ضد الآخرين أو قتله. ولكن هذه الرؤية للفزع أو للإرهاب لا تتفق مع ما نعنيه "بالحرب على الإرهاب"، ولا سيما أن حكومتنا وجيشنا وحراس السجون المدنية لدينا قد استخدموا وما زالوا يستخدمون القوة المميتة التي بلا شك ترهب الناس الذين يقعون تحت وطأتها، بمن فيهم المدنيون الأبرياء، فلا بد أن يكون الاختلاف هو أن أعداءنا في الحرب على الإرهاب يستخدمون القوة المميتة ضد الناس بطريقة تختلف عن طريقتنا، وتميز إدارتنا بين القوة الشرعية والقوة غير الشرعية؛ فقوتنا هي الشرعية، وقوتهم غير شرعية.

ولأن كلمة "شرعية" تعرَّف بأنها قانونية، فهذا يعني أن قوتنا قانونية وقوتهم غير ذلك. ولكن "قانونية" لدى مَنْ؟ فنحن نقول: إن عنفهم غير مشروع، ولكنهم يقولون: إنه العدل.

في هذا النوع من النزاع ربما نتصور أن قانونية الحرب لا بد أن يحكمها القانون الدولي، وهو بالتأكيد يدين الإرهاب، ويدين هجمات 11/9 الوحشية. ولكن في السنوات الأخيرة الماضية دخلت حكومتنا في معارك قضائية ومناظرات برلمانية حول مدى انطباق معاهدة جنيف والقانون الدولي على الحرب على الإرهاب. فقد وصف النائب العام ألبرتو جونزاليس معاهدة جنيف بأنها "عتيقة"، يقصد بذلك أنها قد عفا عليها الزمن، وأن أحكامها لا تنطبق على موقفنا الراهن، وبما أننا نخوض حربًا "لا تشبه أي حرب خضناها من قبل" فإن القواعد التي استخدمناها من قبل - بما فيها القانون الدولي - لن تنطبق عليها. كما أن ظهور صور تعذيب "المحتجزين" في سجن "أبي غريب" بالعراق، وظهور معلومات عن أساليب الاستجواب الغريبة في خليج جوانتانامو، قد طرحت أسئلة حول مدى اتباع جيش الولايات المتحدة للقانون الدولي، فقد جرت مناظرات، ولا تزال، حول ما يُعَدُّ تعذيبًا وكيفية تعريفه. كما جرت، ولا تزال تجري، مناظرات حول ما يعد إرهابًا وكيف نعرِّفه. مَنْ الإرهابيون؟ وهل نستخدم قوة شرعية أم غير شرعية؟ ويبدو أن تعريف القوة الشرعية محل نزاع.

فإذا عجزنا عن تمييز أنفسنا عن أعدائنا فيما يخص استخدام القوة المميتة أو حتى القوة الشرعية، فكيف نرى أنفسنا بالنسبة إلى أعدائنا؟ ففي الذكرى الخامسة لهجمات 11/9 الإرهابية، قال الرئيس بوش: إن "تسعة عشر رجلاً هاجمونا بوحشية لا مثيل لها في تاريخنا، فقتلوا أناسًا من كل الألوان

والأديان والجنسيات، وشنوا حربًا على العالم الحر بأسره، ومنذ ذلك اليوم، تقوم أمريكا وحلفاؤها بالهجوم في حرب لا تشبه أي حرب خضناها من قبل... لقد رأت أمتنا في 11/9 وجه الشر". - التوكيد من المؤلفة - إذن فإن عدونا هو الشر نفسه، وحسب كلام الرئيس بوش، فإن أعداءنا "أشرار، يقتلون بلا رحمة"؛ وإنهم "يكرهون الحرية" ويخططون للهجوم على "الأمم المتحضرة"، ومن ثَمَّ يخوضون "حربًا على العالم الحر بأسره". ويصف الرئيس الحرب على الإرهاب بأنها "كفاح من أجل الحضارة" نفسها، فالحرب على الإرهاب، إذن، كأنها حرب على الهمجيين الذين يعادون الحضارة، إنها حرب الخير ضد الشر، والحرية ضد الطغيان، والرحمة ضد الكراهية.

بصرف النظر عن أن دخول عالم الأيديولوجية يعني أن مصائب قوم عند قوم فوائد، نود أن نسأل: ما معنى أن تكسب الحرب من أجل الخير على الشر، أو أن تقاتل من أجل الحضارة؟ إن الرئيس بوش يطرح الأمور بصيغة كل شيء أو لا شيء، إما أن نخرج منتصرين "أو أن يخرج المتطرفون منتصرين"، "فإنك - إما - معنا أو ضدنا". فهل يعني ذلك أننا إما ننتصر، ومن ثَمَّ نحكم العالم، وكما يقول بوش نأتي بالديمقراطية للكرة الأرضية، أو أن نخسر فنستعبد أو يقتلنا الإرهابيون الذين سيحكمون العالم ويأتون بإدارة ما سماه "الفاشية الإسلامية" لنا جميعًا. هل يمكن أن نتصور انتصارًا أو هزيمة بهذا الحجم إلا في فيلم من أفلام جيمس بوند؟ 1 فهل بإمكان الولايات المتحدة في يوم ما أن تسيطر على الإرهابيين في الكرة الأرضية بأسرها، إلى درجة ألا يتعرض أحد إلى تهديدهم بعد ذلك؟ وهل يستطيع المتطرفون فعلاً أن يستولوا على أمريكا، ويجعلونا عبيدًا لما يسميه بوش "رؤية محرَّفة للإسلام"؟

إذا كانت الحرب على الإرهاب حربًا على قوى الشر التي تقتل بلا رحمة، فما معنى الانتصار في هذه الحرب؟ إنه يعني إما محو الإرهاب من الوجود الإنساني، أو على الأقل من حياة الأمريكيين، أو أن الحرب على الإرهاب ليست حربًا على الإرهاب على الإطلاق، بل إنها شيء آخر. فإذا كانت الحرب على الإرهاب تهدف بحق إلى محو الخوف والفزع من حياتنا، فالانتصار فيها مستحيل، وحتى إذا كان الهدف يقتصر على محو الخوف أو الفزع من الهجمات الإرهابية، فكيف لنا أن نخوض حربًا ضد حالة ذهنية؟ ليست هذه الحرب كغيرها؛ لأنها حرب لا نستطيع مجرد تصور الانتصار فيها، إذ ما معنى أن تهزم الشر نفسه؟

من جوانب الصعوبة في تصور الانتصار في هذه الحرب رفع سقف الأخطار المتعلقة بها إلى درجة مبالغ فيها، فالحضارة ذاتها هي ما يفترض تعرضها للخطر. إن خطاب الخير في مواجهة الشر، والحرية في مواجهة الطغيان، على ما فيه من غلو، ليس جديدًا على هذا الصراع، فالطرفان يستخدمانه. ولكن هذا التدريب على الخيال بَيَّنَ أن الحرب على الإرهاب، أيًّا ما كان هدفها، هي حرب أيديولوجية أيضًا حول المعتقدات والقيم، وحول ما يعد حرية وعدلاً وخيرًا وشرًّا وتعذيبًا وإرهابًا، حتى فكرة أننا "في حالة حرب" تبدو غريبة إذا تذكرنا طبيعة العدو والأساليب التي اتبعناها في "مطاردته". فالحملة العسكرية تشمل مهمة ضخمة للعلاقات العامة تسقط المنشورات على العراق وأفغانستان تحث الناس ألا يقاوموا، وأن يعتنقوا الديمقراطية - وهذا مؤشر واضح على أن جانبًا من هذه الحرب يخاض من خلال الإعلام، ولكن المنشورات هي أدنى الوسائل التكنولوجية المستخدمة في الحملة الإعلامية.

الأكـثر من ذلـك أن تقاريـر وكالات الاستخبارات الأمريكيـة تقول: إن أساليبنـا في خوض هذه الحـرب على الإرهـاب قد زادت بالفعـل من خطر الإرهـاب؛ لأنها تسببـت في زيادة "التطرف الإسلامـي العالمي" الذي تفشى واستفحـل في كل أرجـاء الدنيـا".2 إننا نتكلـم وكأن الإرهـاب مرض خارج عـن السيطرة، مرضـ يمكننا أن نكافحه بضرباتنـا الجراحية، ولكنه مرض لا نستطيـع أن نقهـره أبدًا؛ لأننـا في حربنا على الإرهاب نقـوم بالفعل بصنع إرهابيـين. ففي العـلاج نشر المرض، إننا لا نكتفي بصنـع أعدائنا عن طريق تغذية الحركة "الجهادية العالمية"، بل نصنع صورة أعدائنا بحجم أكبر من الواقـع، ونجعل الصورة مفزعـة تبالغ في قوتهم، وهي خطـوة تنال رضاهم. كمـا أننا ننقل مسرح الحرب من العراق إلى العالم كله، حرب في كل مكان في آن واحـد، حـرب بلا نهاية منظورة، وكما يقـول الرئيس بوش: "نحن الآن في الساعات الأولى من هذا الصراع بين الطغيان والحرية". فإذا كانت هذه هي الساعـات الأولى، فمتى يطلع الفجر؟ ومتى نتوقع النصر الذي طال الوعد به للحريـة على الاستبداد، وكيـف لفزع الحرب أن يهزم فـزع الإرهاب؟ وكيف للعنف أن يولِّد سلامًا.

إن الخطاب الكاسح عن "قوى الشر أينما تكمن" لا بد أن يجعلنا نسأل عن المحرك الحقيقي لهذه الحرب. إن إرهابيي 11/9 قد ماتوا، ونحن نتعقب شركاءهـم، ولكن من المؤكـد أن لهذه الحرب اللانهائيـة هدفًا غير الانتقام لأحـداث 11/9. إن الرئيـس بوشـ نفسه يقر الآن بأن صـدام حسين والعراق لم يكـن لهمـا أي علاقة بالهجمـات على البرجين، ولكنه يكـرر قوله: إن هذه الحـرب هدفها الحفاظ على أسلوب حياتنا وتأمـين رخائنا، ويشير ذلك إلى وجود دوافع اقتصادية للحرب، فالحرب بالتأكيد يمكن أن تكون مربحة، ليس

للمقاولـين العسكريين فحسب، بل لمقـاولي الحكومة الذين يعيدون بناء البنى التحتيـة التـي ندمرها. إن الخطـاب القوي على الطرفين يخيـم على قضايا اقتصاديـة ومادية بإشـارات إلى الخير والشـر تقصر الخير علـى الذات، وإلى المؤمنـين والكفـار والربانيين والملعونين. فـكأن كلا الجانبين يرى الدنيا بالأبيض والأسود فقط دونمـا أي ظلال رمادية. إن خطـاب الحرب خطاب مطلـق، ومتطرف، ولا يسمح بـأي غموض، فإما كل شيء أو لا شيء، إما نحن أو هـم، ونحن إما رابحين أو خاسرين. ولكن هذا النمط من الخطاب المتحيز يتسـم بالسذاجة والخطورة في آن معًا، فهو رؤية كونية تضع طرفًا ضد الآخر في معركة قاتلة لا نهاية لها، خاصة إذا تذكرنا أنها معركة حول مناطق ذهنية كما هي مناطق مادية حقيقية. فكيف نقيس غزو العقول أو الأرواح في الحرب على الإرهاب؟ وما مكونات أي نصر في حرب من أجل الحضارة؟

إن خطـاب الأضـداد – الخير أو الشر، الحريـة أو الطغيان، التحضر أو الهمجيـة، الرابحـون أو الخاسرون – يطمس مناطـق التداخل التي هي أصل في الحيـاة ذاتهـا، فليس هنـاك خير مطلـق أو حرية في حرب لا بـد لوسائل العنف فيها أن تُلوِّث أسمى الغايات المثالية. كما أن النظر إلى العالم من زاوية الرابحـين والخاسريـن هو جزء من لعبـة مهلكة، من شأنهـا أن تحافظ على استمرار عنف طرف ضد طرف إلى ما لا نهاية. وهذا النوع من الألعاب يحتاج إلى عـدو، وإن لم يوجـد يخلقه. أما في سياق منطـق الخير في مواجهة الشر، فإننـا قد ارتبطنا بحرب أبديـة، حرب مقدسة، حرب لا نهاية لها. وأما مكان هـذه الحرب وزمانها فهـو الأبدية؛ لأن عدونا أبديٌّ، فـإذا كان العالم ينقسم إلى نحـن وهم؛ فإن مفهومنا عن ذواتنا كأمة وكشعب وكأحرار وكأخيار لا بد أن يتوقـف على إيجاد "هم" الذيـن نخوض الحرب ضدهم. إن الحرب على

الإرهـاب التي يُتصور أنها حرب ضـد الشر تخلق الأعداء في كل مكان، بل إن مناطق التداخل والغموض في الحياة نفسها هي التي تبعث هذا العدو.

إن هـذا الكتـاب تأمـل في الدلالـة الثقافيـة العميقة لبلاغـة الخطاب وللمجـازات التي لاتزال تنتشر وتـدور في الإعلام حول الحرب على الإرهاب، وخاصـة حـول النساء والجنس. وهـو تأمل في الأساليـب المستخدمة في البث التليفزيـوني الحـالي، وما يعرض علـى شبكة الإنترنت حاليًـا التي تؤثر على قدرتنا على التأويل الناقد لمعنى هذا الخطاب، ولمعنى الأحداث ذاتها. وبرغم مـا لحقائق الحرب من صلة بهـذا النقاش؛ فإن تركيـزي ينصب على كيفية ظهـور هـذه الحقائق داخل الإعـلام، وأسلـوب انتشارها في المخيلـة العامة، فالسؤال هو كيف تمثَّل الحقائق وتؤوَّل؟ إن هذا الكتاب تأمل في معنى تمثيلات العنف في الحرب على الإرهاب، فإن الصور الإعلامية لا تفتح لنا بابًا مباشرًا علـى الأحداث ذاتهـا، بل إن وسائل الإعـلام، كما توحي كلمـة وسائل، تعني وسيطًـا من خلاله يعاد تقـديم الأحداث بطرق معينـة. إن معنى أي حدث أو صورة ليس بالشيء الذي يكمن وراء مظهرها وينتظر أن يكشف عنه النقاب، بـل إن المعنـى ينتج ويعاد إنتاجـه في علاقاتنا بالأحداث والصـور، وإن تأويل معنـى القصـص والصـور البصرية للحرب مـن شأنه أن يجعلنـا نتعلم عن علاقتنـا بهذه الحرب وعلاقتنا بالحرب والعنف عمومًا. ومن المدهش أننا في حالة هذه الحرب نتعلم شيئًا عن علاقتنا بالنساء والجنس.

وعـن طريـق السعـي إلى تأويل صـور من العـراق وأفغانستـان، يمكننا أن نبـدأ في فهـم صورتنـا عن ذواتنا وعـن الآخرين. إن ما بـدا في أول الأمر أحداثَ عنف معزولة يمكن أن يُرى الآن كأعراض لثقافة عنف وموت مرتبطة بالجنـس. وفي حـرب تتعلق بفتح فضـاء رمزي ومادي وتأمينـه، من المهم أن

ندرس مصطلح الحرب على الإرهاب من زاوية رمزيته وأثره المادي، فليست الحياة بالأبيض والأسود قط، بل هي بكامل الألوان. ففي "جانبنا" في جميع أنحاء البلاد تستمر المناظرات في المحاكم والقاعات البرلمانية، وتستمر دموع الثكالى على من سقط من الجنود في قاعات الجنائز في المدن الصغيرة، وتظل صيحات المحتجين المطالبين بالسلام تستدعي تلك الظلال الرمادية. إن مناطق الغموض التي نواجهها في الخبرة لا تنفك تستحث خطاب الحرب المتطرف، بل إن فزع الحرب ذاتها يتحول إلى أكبر العقبات أمام الحرب على الإرهاب. وربما لم تكن الحرب الخَيِّرة خَيِّرة كما نتصور - ولنذكر عشرات الآلاف من المدنيين العراقيين الذين قضوا، وربما كان الخَيِّرون يقترفون أعمال الشر - ولنذكر مخالفات الجنود الذين قاموا كما عرف باغتصاب وقتل المدنيين بدم بارد، وانتهكوا أعراض الأسرى وعذبوهم. وربما لم يكن هؤلاء الرجال رجالاً، بل فتيات...